ومن الحيوانات . الأسد والدب ... الخ . ولكل من هؤلاء جميعاً دور يؤديه وحديث يلقيه. يتقدم فيحدث ويحدث ويحاور ثم يتوارى ويترك الميدان لغيره ، وهكذا دواليك . ويتخلل الحوار المنثور أبيات وأغانى وأناشيد عدة . والقطعة المطبوعة من طيف الخيال تتألف من جملة فصول أو مناظر ، لكل منها حديث وحوار . واعتقادنا أن ما أورده ابن دنيال فى طيف خياله هذا ، ما هو إلا نمط من أنماط عدة كثيرة ، ورواية من روايات مختلفة كانت تمثل بين الناس فى تلك العصور الخالية للهو والتسلية والعظة والاعتبار؛ فالكتاب على ما فيه من مجون وفكاهة فيه أيضاً مثل وحكمة . وعلى أية حالة فهو يومى إلى أن التمثيل المسرحى والرواية التمثيلية والشعر التمثيلى كانت كلها تدور فى مخيلات القوم فى ذاك الزمن السحيق ، ولو إلى حد ما .

ولا يتسع حديث واحد كحديثنا اليوم لاستيعاب القول عن مظاهر القصة فى العصر المملوكى . فكل مظهر منها يحتاج إلى دراسة ، فلعلنا — أو لعل غيرنا — يعود إليها فى فرصة أخرى .

محمود رزق سليم
مدرس بكلية اللغة العربية

٣١ . ٤٤

أبو خليـــل القبانى

باعث نهضتنا الفنية

للاستاذ حسنى كنعان

— ٢ —

شاع فى الفيحاء ما بين سمار الأندية ورواد المجالس ، أن الفتى الشاغورى نابغة بنى أقبيق قد أقصاه شيوخه عن دروس المسجد الأموى ، وطرده والده من داره لنزعته الموسيقية والتمثيلية لئلا تكون هذه الأسرة المرموقة النظور إليها فى حى الشاغور المحافظ على تقاليده وعاداته غرضاً للنقد والغميزة المضة .

وانتشر ذلك كسرعة البرق بين رواد الحلقات ، فأسف على حرمانه من الدرس أناس وفرح آخرون ، أسف الذين كانوا يرقبون له مستقبلا لامعاً من إنصرافه إلى العلم ، وفرح الذين كانوا يتفسون عليه نبوغه ، ويعدون وجوده بينهم حائلا دون ظهورهم ، وكان من أشد الناس أسفاً على حاله ، خاله أبو أسعد النشوانى . فأدناه من مجالسه ، وكفل معيشته ، وجعله وكيلا عنه فى قاعة الغنا ، ولما ارتاش وانتعشت حالته المادية عند خاله بدا له أن يستقل فى عمله ، فاشترى من وفره « قبانا » واستأجر محلا فى سوق البذورية وهو من أشهر أسواق دمشق التجارية ، وجعل يتكسب من هذه الصناعة ، وأمسى يكنى بالقبانى ، فتغلبت هذه الكنية ، فيما بعد على أسرته وغدا يطلق عليها أسرة القبانى ، وكان خاله يعتقد أن إزالة صخرة كبيرة من مكانها أهون عليه من إزالة هذه النحيزة المتأصلة فى نفس هذا الفتى النابغ العجيب . ومما جعله يعطف عليه هذا العطف كله أن أبصره أكثر من مرة يجمع حوله فى مقام الحسين فى القسم الخارجى من الأموى جماعة المؤذنين والمذكرين ، وأبطال المراسلات فى آذان الفجر وفى الأسحار فى ليالى رمضان ، فيعلمهم الأذان والمراسلات من نغمة الصبا ، والحجاز ، والجهاركاه ، والسيكا ، وكانوا لا يعرفون سوى نغمتى الراست والبياتى ، وكان ذلك وهو فى الثانية عشرة من سنى حياته ، وكان صوته على مأذنة عيسى القائمة فى جانب من جوانب المسجد الأموى يفتن السامعين وقت السحر وهو فى هذه السن ويجعلهم فى حيرة من أمره وذهول . وإلى هذه المواهب التى لا ينضب معينها ، نراه منصرفاً إلى العلم والتجارة والكسب ، حيث لا تمر عليه ساعة من نهار دون أن يفيد منها .

وكثيراً ما كان يرى فى أوقات الفراغ ممسكا بيده مطرقة من حديد يطرق بها جانب قبانه طرقات موقعة على الأوزان الموسيقية ينشد الموشحات والأهازيج على حسب الإيقاع إنشاداً يفتن به الألباب ويخلب عقول أهل السوق ، فيتكونون حوله يرقصون كأنهم سكارى لعبث. إبنة الخان بعقولهم ، فيصفقون ويستديرون على أنفسهم بدون شعور من شدة النشوة والطرب ، مما جعل هذه المواهب القلوب على محبته وجلبت إليه الرزق فذاع إسمه فى المدينة وتحدث عنه الخاص من أبنائها والعام .

وكانت تقام له حفلات السمر لدى صحبه وعاشقى فنه فى كبريات الدور ، يمتد فيها وصحبه المحاورات والروايات الساذجة

المؤلفة من أربعة أشخاص أو خمسة ، تعرض فيها فصولا بالفاضلة ما بين الكسلان والمجتهد ، والتاجر والعامل ، والعالم والجاهل ، ولما طال الأمد عليه وهو يدب فى هذه الصناعة دبيب الطفل الزاحف الذى يحبو على يديه ورجليه ويتحفز للوثوب خطر بباله أن يأخذ دور عنترة ويجعل دور عبلة لصديق من أصدقائه مقلداً فى ذلك أستاذه الأول على حبيب الذى كان يتخذ من الصور الخيالية أشخاصاً فيكلمهم خلف الشاشة ويحاورهم ويداورهم كما مر معنا فى البحث الماضى ، فنجح فى هذا الباب نجاحاً كتب له فيه الظفر ، وفاق فيه أستاذه . إذ أن ذاك كان يحاور صوراً خيالية ، وهذا يحاور ويمثل مع أشخاص حقيقيين .

وفى عهد ولاية المرحوم الوالى « صبحي باشا » حضرت إلى دمشق من فرنسا فرقة تمثيلية ومثلت فى مدرسة « العزارية » روايات إجتماعية وأخلاقية فى باب توما ، وهى أقدم مدرسة لدينا كانت تقوم ولا تزال قائمة حتى الآن بتعليم اللغة الفرنسية ، وكان القبانى قد شهد هذه الروايات جميعها وأخذ فكرة عن المسرح والتمثيل والممثلين وتوزيع الأدوار « والمكياج » ، فتم بذلك ما كان ينقصه من فكرة التمثيل والمسرح ، وأمسى أكبر همه أن يؤسس فى دمشق مسرحاً ، ويؤلف فرقة ، بيد أن الذى عاقه عن المضى فى سبيله ، قضية ظهور الفتيات على المسرح ، وما يعتور هذه الفكرة من طرق شائكة وصعاب وعقبات .

فالمرأة التى كانت حبيسة بيتها ، وكان لا يسمح لها فى الخروج منه سوى مرة واحدة فى العمر تلك هى المرة التى تخرج فيها من البيت مزفوفة إلى بيت بعلها ، ومرة واحدة بعد الموت ، تلك هى المرة التى تخرج فيها محمولة على الأعناق إلى مقرها الأخير — فكيف تستطيع أن تظهر على المسرح وحالتها حالتها ، وتحبسها حبسها ، إن دون ذلك خرط القتاد وإراقة الدماء وإسالة النفوس .

بقى القبانى يفكر فى تذليل هذه العقبة وتسهيلها مدة من الزمن حتى بدا له أن يمضى فى طريقه غير وجل ولا هياب ، ويستعيض بدلا عن النسوة الفتيان « الفرانق » ذوى الشارات الحسنة والملامح المغرية . ولما شرع فى عمله ، ورأى الإقبال عليه والتشجيع والتنشيط من كل صوب وناحية وأصبح المارضون أنفسهم عليه من الفنانين أصحاب المواهب ومن الفتيان ما يفيض عن الحد المطلوب طار من إهابه فرحاً ، لا سيما وأكثرهم عرض نفسه عليه بدون أجرة تشوقاً ولذاذة ، فألف على الفور فرقة تمثيلية كانت تمثل الروايات فى بدء عهدها ، فى البيوت والقاعات الخاصة ، فذاع خبر هذه الروايات فى الشام حتى بلغت مسامع « الوالى » التركى « صبحى باشا » ، وكان ممن يقدرون الفن والمواهب ، فحضر بنفسه تمثيل رواية من الروايات فى حفلة أقيمت على شرفه بصورة خاصة فى بيت ثرى من أثرياء الشام وهم كثر فى ذلك العهد ، فدهش مما سمع ورأى ، وهام بحب أحمد كل الهيام وأدناه من مجالسه ، وجعله موضع عنايته ، فصار شفيعاً ووسيطاً ما بين الحاكم والرعية ، ما من أحد عرضت له مهمة لدى الوالى وقصد أحمد بها إلا قضاها له .

رأى الباشا فى هذا النابغ الدمشقى الشروط المتوفرة للقضاء على الجمود الفكرى فى الشام وتهذيب النفوس الجامحة بواسطة التمثيل والموسيقى ، فأوعز إليه أن يؤلف جوقة ويقيم مسرحاً فى المكان الذى يختاره .

ولقد رمى الوالى بهذه الفعلة إلى غاية سياسية الجملة تلك أهمية صرف الشعب المتوثب عن الحياة الطليقة التى كان أوجد نواتها فى البلاد قادة الثورة الفكرية الشيخين المصلحين الإمامين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

فتم له بذلك ما أراد ، وكان إقبال الشعب على مشاهدة روايات القبانى يفوق حد الوصف ويشب عن الطوق ، فأقام مسرحه فى خان من خانات البذورية ، وأول رواية عرضها على الجماهير الحاشدة رواية ناكر الجميل ، فأحرزت شهرة فائقة ونالت نجاحا عظيما فى الأوساط ، ثم اتبعها برواية وضاح فلم يكن إفتتان الناس بهذه الرواية أقل من افتتانهم بسابقتها ، وهكذا دواليك أخذ هذا النابغة الموهوب يتدرج بفنه من حسن إلى أحسن ومن جيد إلى أجود ، حتى طارت شهرته فى جميع الأنحاء السورية ، وتخطتها إلى الأقطار المجاورة ، فصار حديث القبانى الممثل المطرب والمنشد البارع والملحن الأوحد مالىء دنيا الشام وشاغل أهلها .

ولما أقبلت عليه الدنيا إقبال الأتى المنهمر ، وبسم له الدهر وصلحت حاله ، أخذ محلا فى « خان الكمرك » فى المصرونية بالقرب من المدرسة العادلية ، وأقام مسرحه هناك فى منتصف المدينة . وهنا استفاض الحديث فى المنازل والمجالس عن عظيم مواهبه وسحر فنه ، وكثر رواد مسرحه ، وعشاق موسيقاه ، وتمثيل رواياته ، فلا حديث فى المدينة إلا حديثه ، ولا ذكر إلا ذكره ...

وكان كلما تدفقت عليه الأموال ينفقها فى سبيل تحسين مسرحه وجلب الحاجات الفنية الفامضة إليه ، ففتن الناس وخلب عقولهم حتى بلغ من شأن الإهتمام برواياته أن صار الفقير منهم الذى لا يملك ثمن بطاقة الدخول يبيع فراشه وأوانى بيته وحلى زوجته ليشاهدها ويجتلى طلعته فيها ، وكان لشدة الإزدحام يؤم الواحد منهم القاعة من الصباح ويبقى فيها حتى المساء ليشاهد الرواية ، فإذا ما انقضت اللذة بمشاهدة رواية تولدت شهوة ولذة بمشاهدة غيرها . ومن شدة الإزدحام على أبواب القاعة المقام فيها المسرح أسس الدخول إليها لا يكون إلا تحت إشراف السلطات المحلية ، وصارت تباع التذاكر لدى مكاتب المتعهدين قبل ثلاثة أيام ، ومن يتأخر عن حجز مكان له فى أسبوع قبل ثلاثة أيام أو أربعة أيام يضطر مكرها للحظوة بمشاهدة هذه الروايات فى الأسبوع الذى يليه .

وكان للوالى فى قاعة المسرح مقصورة يقصدها كل ليلة ويمتع سمعه وبصره بهذا الفن الأخاذ بالرغم من جهله اللغة العربية التى يمثل فيها القبانى رواياته .

ومن عادة الدهر ألا يبقى على حالة واحدة ، وأنه إذا ضحك لإنسان يوماً ما سيتجهم له إذا دالت دولته وولى زمانه وشالت نعامته ، وخانه صحبه وأوطانه ، وقديماً قال الشاعر : « من سره زمن ساءته أزمان ... »

(البحث صلة)

حسنى كنعان

الضمير العالمى

الأستاذ عبد الرحيم عثمان صارو

طالت على الأيام رقدته وخلا من الوجدان والمهج
فمتى ترى تفتر مقلته وتقرّ عين العالم اللهج ؟

ثملت من الإغفاء عيناه أم ذاب تحت جفونه البصر ؟
ياليت شعرى أين مثواه بين الجوانح أيها البشر ؟ !

تصحو الظالم إن جرى الوسن فى مقلتيه ويعجى العدل
وإذا تنبه نامت الفتن بين الورى واستأمن الكل

فيم « الجامع » أيها الناس : قول يسر ومنطق عجب ؟
و « موائق » يتعجب الناس من حسنها والدر والذهب

فيم « الجامع » راح ينهزم حق بها ويعز بهتان
لو صحت النيات والذمم لم يشق تحت الشمس إنسان

لو لم تك الأهواء رائدكم يا من ملكتم قبضة الكون
ما احتاج حق أن يناشدكم — عبثاً — له قبساً من العون

لو لم تك الأهواء غالبة ومطامع تعدو وتستبق
لم تخذلوا للعرب واضحة غراء مثل الشمس تأتلق

تاه السلام وحار بينكم ويكاد يقضى نحبه طفلا
تتمشدقون به وفمكم يردى السلام ويورث القتلا

أوقدتموها بيننا شعلا حتى قهرتم طاغياً حرنا
ومن العجائب : كل ما فعلا معكم فعلتم شبهه معنا

سيظل بين جوانب الأرض تعس الوجوه وضيعة الأمل
ما ثمت طى جوانح البعض أسطورة الذئب والحمل

عبد الرحيم عثمان صارو